غلاف غزة – "عوتيف عزة"، د. دوتان هليفي، جامعة تل أبيب، 3.7.2025

المقدمة

مساء الخير للجميع. شكرًا لانضمامكم إلينا في هذه الجلسة الختامية لهذا الأسبوع، ضمن الأسبوع الثاني من سلسلة "عيون على غزة". يسعدنا اليوم أن نستضيف الدكتور دوتان هليفي، مؤرخ متخصص بتاريخ غزة، من الفترة العثمانية وحتى القرن العشرين، من جامعة تل أبيب. شكرًا لوجودك معنا.

المحاضرة

ما أريد أن أفعله في هذا الوقت القصير هو أن أشارك بعض الأفكار التي لم تنضج بعد تمامًا، لكنها بداية لأفكار أحاول من خلالها فحص أو النظر إلى الحرب الحالية على غزة كشيء يكشف عن آليات أطول أمدًا. وبشكل محدد، الحرب المستمرة ضد غزة، في غزة، وعلى غزة، فعليًا من عام 2007 حتى عام 2023. أعتقد أن أحد الأمور التي نراها في هذه الحرب، والتي تصبح أكثر وضوحًا مع مرور الوقت، هو أن إسرائيل تستخدم نفس الآليات التي استخدمتها فعليًا طوال تلك السنوات. وإذا نظرنا نظرة شمولية إلى هذه المواجهات: 2008، 2009، 2012، 2014، 2021، 2022، و2023 قبل السابع من أكتوبر، فإننا نتحدث فعليًا عن حرب واحدة طويلة مستمرة. وربما الطريقة الأدق لتحليلها هي على هذا النحو: حرب طويلة دخلت جولتها الأشد وحشية وقوة، أي الجولة الأكثر عنفًا وشراسة في أكتوبر 2023. وإذا نظرنا إليها بهذه الطريقة، فربما من الأفضل أن نُمعن النظر في تحليل ما هي الآليات التي سمحت لهذه الحرب بأن تستمر كل هذا الوقت.

سأعرض الآن عرضًا تقديميًا – أعتذر سلفًا لأن تصميمه ليس جميلًا جدًا، لكنه مجرد أداة تساعد على توضيح هذه الأفكار الأولية. أنا أصف ما يحدث بـ"حرب مستمرة"، وأستند في ذلك جزئيًا إلى ما كتبه يوفال كريمنيتسر. فالحرب بطبيعتها تسعى إلى أن تنتهي – نعم، الحرب قاسية لأن هدفها إنهاء حالة الحرب.

كلما قُتل مزيد من الأشخاص، وكلما دُمّرت مزيد من البنى التحتية، يُفترض أن نقترب من حسم أو نتيجة. لكن إذا استمرت الحرب كل هذه السنوات، فهذا يدل على وجود آليات ضمنها تخدم أحد الأطراف وتوفر له أسبابًا للاستمرار فيها. وبطبيعة الحال، العامان الأخيران جعلا هذه الحقيقة واضحة في الواقع الملموس. وانطلاقًا من ذلك، فقد يكون من الأجدر أن نحلّل الحرب الطويلة التي امتدت من عام 2007 حتى عام 2023. ضمن هذه الآليات، هناك العديد من العناصر في الجانب الإسرائيلي – مثل منظومة القبة الحديدية التي جعلت إطلاق الصواريخ شبه غير محسوس لأكثر من 15 عامًا، بالإضافة إلى أنظمة الإنذار المبكر. وفي حديثي اليوم، أرغب في التركيز على مفهوم واحد – أو آلية واحدة – أعتقد أنها كانت أساسية في تمكّن إسرائيل من الحفاظ على استمرارية هذه الحرب أو حتى تمديدها. هذا المفهوم أو الآلية هو ما أسميه: "غلاف غزة" – "عوتيف عزة". من المؤكد أن "غلاف غزة" يشير إلى منطقة جغرافية، إلى مكان له هوية وخصوصية. لكن ما أود القيام به هنا هو تحليله بوصفه مفهومًا، كآلية.

ولكي أقوم بذلك بأفضل شكل ممكن باستخدام أدواتي كمؤرخ، أود ببساطة أن أوضح أن ما يُعرف بـ"غلاف غزة" هو، كما نقول، "حتى للمظهر العتيق لحظة ولادة" – أي أن له لحظة نشأة في سياقات محددة، وقد أُنشئ لأهداف معينة. فبصورة عامة، إذا تحدثنا عن بداية الحصار المفروض على قطاع غزة، فإنها تعود إلى ما قبل فك الارتباط، وقبل أن تتولى حماس الحكم. يمكن فعليًا إرجاع بدايته إلى عام 2001، في ظل الانتفاضة الثانية، أي في سياق سياسي–أمني متوتر. بدأت حينها عملية الأمننة (Securitization) لقطاع غزة، أي تحوّله إلى كيان أمني تُدار شؤونه فقط عبر أدوات عسكرية. وفعليًا، يبدأ الحصار من تلك المرحلة بدرجات متفاوتة من الشدة، حتى يصل إلى حصار كامل في عام 2007. في الوقت ذاته، عام 2001 هو أيضًا العام الذي أُطلق فيه أول صاروخ من قطاع غزة نحو منطقة خارج القطاع – وتحديدًا نحو سديروت.

بين عامي 2001 و2005، شهدنا عملية تدريجية تحوّل فيها المجال المحيط بغزة إلى نوع من "المنطقة العازلة" الأمنية (buffer)، والتي أخذت بشكل ما مكان المستوطنات، لتكون الحاجز الذي يمتص النيران، والمقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال. وكلما اتسع مدى الصواريخ وبدأت تصل إلى خارج قطاع غزة، كان ذلك يحدث بالتوازي مع تقدّم خطة فك الارتباط التي بدأت تتبلور منذ 2003 وتم تنفيذها فعليًا في أغسطس 2005. ومن عام 2007 حتى 2010، تظهر للمرة الأولى مصطلحات مثل "غلاف غزة" كجزء من اللغة الرسمية، وتصبح هذه التسمية حجر الأساس cemented الذي يرسّخ فكرة إدارة الصراع كاستراتيجية إسرائيلية للتعامل مع العلاقات الفلسطينية من تلك اللحظة فصاعدًا.

وبسرعة، أود فقط أن أقوم هنا بعمل تحليلي زمني بسيط يتتبع بعض قرارات الحكومة المختلفة التي بدأت بالتحدث باستخدام هذه المصطلحات.

منذ اللحظة التي بدأ فيها يتبلور هذا المفهوم – خلال الانتفاضة الثانية – حول كيفية التعامل مع إطلاق الصواريخ من خارج قطاع غزة، صدرت قرارات حكومية تتحدث عن "تعزيز وترسيخ" منطقة تُسمّى آنذاك "سديروت الكبرى". في عام 2004، أصبحت خطة فك الارتباط تلوح في الأفق، وكانت بالفعل قضية علنية. وهنا، للمرة الأولى، تظهر التسمية "منطقة غلاف غزة"، والتي تُعرّف على أنها شعاع بقطر 6 كيلومترات (سأشرح لاحقًا لماذا)، ويشمل 34 مستوطنة/بلدة. في أغسطس 2004، صدر قرار حكومي إضافي يوسّع هذا الشعاع إلى 7 كيلومترات، ليشمل 10 بلدات إضافية. بعد ذلك، تختفي هذه التسمية تدريجيًا، وتظهر بدلاً منها مصطلحات جديدة مثل "محيط غزة" (سوفيف عزة).

في تلك المرحلة، تم منح تسهيلات ضريبية لأول مرة – تخفيضات في ضريبة الدخل. كما تم التأكيد على أن هذا التوسيع إلى شعاع 7 كيلومترات هو التوسيع الأخير، وقد اتُّخذت إجراءات لمنع إدراج بلدات إضافية ضمن هذه القائمة. في عام 2005، قبل ثلاثة أشهر فقط من فك الارتباط، تم تصنيف بلدات غلاف غزة رسميًا لأول مرة على أنها "خط مواجهة"، وهو تصنيف منحها أفضليات في المناقصات الحكومية ومزايا أخرى. في عام 2006، بعد فك الارتباط، طُرح لأول مرة موضوع التحصين – وربما هو الجانب الذي أصبح السمة الأبرز لسياسات الدولة في هذه المنطقة المعروفة اليوم باسم غلاف غزة. لاحظوا كذلك المصطلحات: "ستعمل حكومة إسرائيل على تعزيز قدرة صمود... (في غضون بضع سنوات، سيدخل هذا التعبير في اللغة الرسمية تحت عنوان جديد هو "(ḥosen) "resilience... قدرة صمود سكان سديروت والبلدات المجاورة لقطاع غزة، وتمكينهم من التعايش طويل الأمد مع الواقع الأمني الخاص الذي نشأ في المنطقة". وبصفتي مؤرخًا يشتغل على النصوص، من الجدير دائمًا الانتباه إلى وجود علامات الاقتباس – ومتى تظهر ومتى لا تظهر. فعندما يُذكر مصطلح "بلدات غلاف غزة" بين علامتي اقتباس، فهذا يشير عادة إلى أنه لا يزال مصطلحًا قيد التشكل، ويستلزم توضيحًا إضافيًا. وفي تلك المرحلة، كان هذا هو الحال بالفعل. ولو أجريت بحثًا في غوغل مقتصرًا على عام 2010، لرأيت أن مصطلح "الغلاف" لم يكن بعد مستخدمًا بشكل واسع. لقد بدأ بالتسلل إلى الخطاب فقط لاحقًا. (أنا أصل إلى الدقائق الأخيرة من مداخلتي، لكن فقط لتقريب الصورة): لماذا 6 أو 7 كيلومترات؟ هذا كان، في حينه، مدى صاروخ القسام من نوع 2. ولكن منذ ذلك الحين، أصبحت الصواريخ تصل إلى معظم مناطق إسرائيل. ومع ذلك، بقي نطاق الـ6–7 كيلومترات مجمّدًا كما هو. حتى الطلبات المتكررة لإدراج بلدات أخرى ضمنه – مثل نتيفوت مثلًا – قوبلت بالرفض مرارًا وتكرارًا على مر السنين.

وأبرز مثال على ذلك هو مدينة نتيفوت، التي تبعد 9 كيلومترات فقط عن القطاع. ورغم ذلك، لم تُدرج ضمن "غلاف غزة". فقط لتوضيح مدى صلابة هذا التعريف – حتى مع التغييرات التي طرأت، مثل إنشاء ما يُعرف بـ"سلطة تيكوما"، فإن تفويضها لا يزال مستندًا إلى ما حددته قرارات الحكومة بشأن غلاف غزة. (سآخذ فقط 30 ثانية إضافية): هذا التفويض لا يزال قائمًا ضمن هذا القيد الجغرافي، مع استثناء بسيط لعدد من البلدات. وفي خطة الخمس سنوات – وهي وثيقة مثيرة للاهتمام ومفصلة، مكوّنة من عشرات الصفحات – من الأمور اللافتة أنه لا توجد فيها خريطة. ففي كل ما يتعلق بغلاف غزة، تُعد الخرائط مسألة سياسية وحساسة. لذلك، لم تُدرج في الوثيقة أي خريطة. ولحسن الحظ، قام قسم الأبحاث في الكنيست بإعداد نوع من الخرائط التوضيحية في محاولة لفهم الواقع، على ما يبدو بعد أن قدّم أحد أعضاء الكنيست استجوابًا يسأل: ما هي سلطة تيكوما؟ وماذا تدير؟ فأعدّ القسم خريطة أظهرت أن ما تم تعريفه ضمن غلاف غزة في عام 2006 لا يزال يشكّل حتى اليوم الأساس الذي تستند إليه سلطة تيكوما. بمعنى آخر، هناك تثبيت وترسيخ فعلي لهذا التعريف. لكن متى يتوقف هذا القيد الجغرافي عن كونه ذا صلة؟ ومتى يبدأ بالتلاشي؟ من منظور معين، هذا يحدث عندما تتحوّل غزة إلى مفهوم – وحينها، يصبح "غلاف غزة" أيضًا مفهومًا، لا مجرد منطقة.

أحد الأمور التي تثير اهتمامي هو كيف أن الخرائط التي بدأت تنتشر مع بداية إطلاق الصواريخ من قطاع غزة قد رسّخت في وعي الإسرائيليين هذا الكيان المسمى "غلاف غزة" بوصفه كيانًا جغرافيًا قائمًا. داخل هذا الكيان المسمى "غلاف غزة"، لو سألتَ أحد السكان هناك، من غير المرجّح أن يقول: "أنا أعيش ضمن نطاق 6 إلى 7 كيلومترات من قطاع غزة"، بل سيقول على الأرجح: "أنا أعيش في منطقة لها مكونات هُوياتية، لها طابع أيديولوجي". وهنا أصل إلى ختام كلمتي: ما نراه يتشكّل هو، في الوقت ذاته، تحوّل في النموذج الإسرائيلي – من محاولة حل الصراع، أو السعي إلى تسويته بوسائل سلمية، إلى الانتقال نحو إدارة الصراع. وهذا يحدث بالتوازي مع تحوّل "غلاف غزة" إلى فضاء له هوية، وله أيديولوجيا، وله رسالة. إنه الخط الحدودي الجديد – الـ frontier – الجبهة الجديدة، الصهيونية الجديدة. إنه فضاء "الجنوب الأحمر" – عبارة تجمع بين نظام الإنذار المعروف بـ"اللون الأحمر" وبين أزهار شقائق النعمان التي تزدهر هناك. كل زيارة إلى المنطقة، وكل تعبير عن تضامن معها، يصبح جزءًا من جهد وطني لتعزيز "(ḥosen) "resilience السكّان – أي صمودهم – من أجل تحصينهم، وإعدادهم للجولة القادمة من التصعيد، وتمكينهم من التعامل مع صدمات الجولة السابقة. وقد صادفتُ وثيقة تُعبّر عن هذا المنطق بدقة. ففي عام 2007، كتب عمير بيرتس، حين كان نائبًا لرئيس الحكومة، رسالة إلى إيهود أولمرت حول اقتراح لتوسيع عدد المناطق المحصّنة في سديروت. وعبّر فيها بوضوح عن هذا المفهوم حين قال في افتتاح رسالته: "ليس لدي شك في أن مواطني إسرائيل سيتجنّدون من أجل هذا الجهد (أي تمويل التحصينات في سديروت)، لأنهم يرون في سكان سديروت وغلاف غزة الموقع المدني الأمامي، الذي يستمد صموده من القرب والتضحيات التي نقدّمها نحن، العائلات التي تعيش هنا مع أطفالنا الصغار، وأبنائنا، وشيوخنا – لصالح دولة إسرائيل". وبالنسبة لكل من يعيش في غلاف غزة، أو لديه أقارب هناك، أو زار المنطقة – فإن هذا الكلام يبدو طبيعيًا تمامًا. لقد أصبح جزءًا مما يختبره الناس ويعيشونه. لكن ما أودّ التأكيد عليه هو أن هذه الهوية لم تتشكّل من تلقاء نفسها. لقد وُلدت في ظروف سياسية دقيقة، وكان الهدف منها هو دعم سياسة حرب مستمرة بين 2007 و2023، وتعزيز استراتيجية وطنية لإدارة الصراع بدلًا من حله.